الأنساق المضمرة في شعر محمد بن عمار

الأستاذ الدكتور
ستار جبار رزيج
stier@mu.edu.iq
جامعة المثنى ـ كلية التربية للعلوم الإنسانية ـ قسم اللغة العربية

Embedded patterns in the poetry of Muhammad bin Ammar

Prof. Dr.
Sattar Jabbar Razig
Al-Muthanna University - College of Education for Human Sciences Department of Arabic language

الملخص:-

إن علاقة الأنساق الثقافية المضمرة تنبثق من كون النقد الثقافي نشاط أو فعالية تُعنى بالأنساق الثقافية التي تعكس مجموعة من السياقات الثقافية والتاريخية والاجتماعية والأخلاقية والإنسانية والقيم الحضارية، بل حتى الأنساق الثقافية والدينية والسياسية، وهي أنساق مخفية في ما وراء النص، والهدف الأساسي للقراءات الثقافية هو الخوض في هذه النصوص للوصول إلى هذا النسق المضمر خلفها وتعمل المنظومة النقدية الثقافية في كل تنظيراتها على نظرية الأنساق المضمرة، وهي أنساق ثقافية وتاريخية تتكون عبر البيئة الثقافية والحضارية.

الكلمات المفتاحية: الأنساق المضمرة، محمد بن عمار، القيم الحضارية، المنظومة النقدية، البيئة الثقافية والحضارية.

Abstract:-

The relationship between implicit cultural patterns emerges from the fact that cultural criticism is an activity or event concerned with cultural patterns that reflect a set of cultural , historical , social , ethical , humanitarian and cultural contexts, cultural values, and even cultural, religious and political patterns, which are patterns hidden behind the text. The primary goal of cultural readings is to delve into In these texts to reach this implicit system behind them, the cultural critical system works in all its theories on the theory of implicit systems, which are cultural and historical systems that are formed through the cultural and civilizational environment.

Key words: implicit patterns, Muhammad bin Ammar, cultural values, monetary system, cultural and civilizational environment.

المقدمة:ـ

لقد تأثر المنهج الثقافي باستراتيجية جاك دريدا التفكيكية القائمة على التقويضية والتشتيتية والتشريحية، ولكن ليس من أجل إبراز التضاد والمتناقض، وتبيان المختلف أثراً وتأجيلا، بل من أجل استخراج الأنساق الثقافية عبر النصوص سواء أكانت تلك الأنساق الثقافية مهيمنة أو مهمشة، وتمركزها في سياقها المرجعي الخارجي، وعليه فالنقد الثقافي هو مشروع في نقد الأنساق، والنسق مرتبط بكل ما هو مضمر من جهة وما هو غير مضمر من جهة أخرى وكذلك يعرف الدكتور طه الهاشمي)) النسق بأنه عبارة عن عناصر مترابطة متفاعلة متمايزة لها دينامية تشتغل على منظومات خارجية وداخلية))[١]. ويعد مفهوم النسق من المفاهيم الأساسية التي يرتكز عليها النقد الثقافي، إذ يهتم هذا النقد بالوظيفة النسقية في ما لنصوص والخطابات، ويستقصي اللاوعي النصي. ويحدد عبد الله الغذامي هذا النسق بقوله: يتحدد النسق عبر وظيفته، وليس عبر وجوده المجرد، والوظيفة النسقية لا تحدث إلا في وضع محدد ومقيد، وهذا يكون حينما يتعارض نسقان أو نظامان من أنظمة الخطاب أحدهما ظاهر والآخر مضمر، ويكون المضمر ناقضا وناسخا للظاهر. ويكون ذلك في نص واحد، أو في ما هو في حكم النص الواحد. ويشترط في النص أن يكون جماليا، وأن يكون جماهيريا.ولسنا نقصد الجمالي حسب الشرط النقدي المؤسساتي، وإنما الجمالي هو ما اعتبرته الرعية الثقافية جميلا[٢].

وينتقل النسق المضمر دلاليا من الدلالات الحرفية والجمالية إلى الدلالات الثقافية الرمزية، باعتبار أن كل ثقافة معينة تحمل في طياتها أنساقا مهيمنة، فالنسق الجمالي والبلاغي في الأدب يخفي أنساقا ثقافية مضمرة، لا يقف عندها النقد الأدبي ولا يكشف تجلياتها بسبب توسله بما هو جمالي أدبي. يقول الغذامي: أما النسق المضمر فهو ليس في محيط الوعي، وهو يتسرب غير ملحوظ من باطن النص، ناقضا منطق النص ذاته، ودلالاته الإبداعية، الصريح منها والضمني. وهذه بالضبط لعبة الألاعيب في حركة الثقافة وتغلغلها غير الملحوظ عبر المستهلك الإبداعي والحضاري، مما يقتضي عملا مكثفا في الكشف والتعيين[٣].

حياته:-

في قرية شنتبوس الصغيرة قرب شلب ولد ابو بكر محمد بن عمار عام ٤٢٢هـ (١٠٣١م)،

في عائلة فقيرة معدمة مغمورة الاصل ، لا امجاد لها تعتز بها ولا مفاخر تدعيها ، ولم نر مؤرخا يتحدث عن دور قامت به في ميدان السياسة او المعرفة [٤] ، فكل ما نستطيع استخلاصه من اقوال المؤرخين المسلمين هو أن أباه كان يدعى عمار بن الحسين بن عمار ، وأنه كان ينتسب إلى قبيلة مهرة العربية التي ادعى الانتماء إليها آنذاك كثير من الناس، ومهرة هذه فرع من القبيلة العربية المعروفة قضاعة اليمانية الأصل ، إلا إنه مما يبعث على الدهشة ويثير الاستغراب أن ابن عمار نفسه لم يشر أبدا فيما وصل من أخباره أو أشعاره إلى هذا الأصل العربي ، كما أن جل ثقاة المؤرخين الأندلسيين لم يشيروا هم أيضا إلى هذا النسب على الرغم من أنهم أطنبوا في الحديث عن الشاعر وعنوا بأخباره ، وربما نستطيع الإشارة إلى اعتزازه بنسبه بهذا البيت الذي تعرض فيه تعرضا خفيفا إلى عروبته وانتمائه ، حيث قال في قصيدته الميمية التي نظمها في سرقسطة وأرسلها إلى صديقه المعتمد[٥]:

وما حال من ربته أرض أعارب ... وألقت به الأقدار بين أعاجم

أما أمه فقد أشار المعتمد في قصيدة هجا بها ابن عمار إلى أنها كانت تسمى شمسة ، هذا كل ما نمتلك من أخبار حول أسرة أبي بكر بن عمار مع إجماع المؤرخين على إنها كانت عائلة مغمورة فقيرة دون ماض تعتد به ولا حاضر تزهو فيه، وقد كان لهذا الأصل المغمور أثر كبير في حياة الشاعر ، أسهم في تكوين نفسيته وطريقة تفكيره ، فلم تكن الحياة هينه يسيره آنذاك لأمثاله من الفقراء ، ولكنه عرف كيف يقود زورقه في خضم هذه الحياة الشاقة المتعبة ليحقق مطامحه الواسعة العريضة ، وقد نجح في ذلك بفضل الفترة المضطربة التي كان يعيش فيها من جهة ، وبفضل نبوغه وذكاءه الحاد ومعرفته بالناس والخبرات الكثيرة التي زودته بها الحياة من جهة أخرى ، فقد كانت حال إسبانيا المضطربة المعقدة تفسح المجال للمغامرين الطامحين أمثال ابن عمار؛ لأن يقوموا بأهم الأدوار ، محرزين أسطع النجاحات أو مقدمين نفوسهم ضحايا رخيصة على مذبح الأطماع والشهوات.

المبحث الأول

النسق المضمر في الخطاب السياسي

في حياة الشاعر ابن عمار الكثير من المطبات والمغامرات السياسية التي أدت في نهاية المطاف إلى فقدان حياته وقتله من قبل المعتمد ابن عباد. فقد كان الشاعر ابن عمار شديد

الذكاء وذا طموح واسع وذا ثقافه أدبية واسعة وذا معرفة عميقة بنفوس الناس ، هذا كله جعله مميزا على كثير من رجالات زمانه ، واستثمر الشاعر ذكاءه للإفادة من تجارب وخبرات الآخرين في مجال السياسة، وطموحه الجامح لتحقيق مشاريعه ومطامعه السياسية ، فاقترب من رجالات السياسة وأرفعهم منزلا، فخاض في أوعر الطرق وفي مزالق الخطر لتحقيق هذه المطامع. ويمكن أن نقسم هذا المبحث على قسمين هما:

الأول: هو نسق الخطاب المدحي، والثاني: نسق خطاب الشكوى والاستعطاف.

القسم الاول - نسق الخطاب المدحي:-

لقد اقترب الشاعر من رجال السلطة فكان أولهم هو المعتضد بن عباد حيث مدحه كثيرا ، حيث يقول:

أندى على الأكباد من قطر الندى وألذ في الأجفان من سنة الكرى

حيث نرى إمكانية الشاعر في وصف الملك بمجموعة معقدة من العواطف والأفكار، فالملك يتمتع بصفات هي مزيج من اللطف والطيبة وكرم النفس وغير ذلك مما نحسه حين قراءتنا لهذا البيت ، وهنا نرى نسقا إنسانيا يعبر تعبيرا قويا حيا عن صفات انسانية ساميه وبإخلاص تام ، فهو من قبيل تملق أو تقرب الشاعر إلى الملك، وكذلك يثبت أن هذا نتاج إمكانيته الأدبية وشاعريته الصادقة في وصف الأشياء ، فهو كان يستطيع أن يقول أيما أبيات تثير إعجاب الملك ، وأراد إيصال فكرة كرم وسخاء وطيبة الملك التي ممكن أن تكون حقيقية في حينها ، فأراد الشاعر التعبير عنها بدقة.

وفي موقف آخر يبدأ قصيدته في مدح الملك المعتضد ، ويصف مجلس الأنس، فيقول[٦]:

أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى	والنجم قد صرف العنان عن السرى
والصبح قد أهدى لنا كافوره	لما استرد الليل منا العنبرا
والروض كالحسنا كساه زهره	وشيا وقلده نداه جوهرا
أو كالغلام زها بوردة روضه	خجلا وتاه باسمهن معذرا
روض كأن النهر فيه معصم	صاف أطل على رداء اخضرا

فهنا مزيج من المدح والوصف المصطنع لنيل رضى الملك أو لفته للإعجاب به ، وكنسق نرى التركيز من الشاعر على التشبيه المبالغ فيه ، حاله حال الشعراء آنذاك ، لإثارة الإعجاب واستخدام المحسنات لتكوين قيمة فنية الغرض منها زيادة قوة تعبيره عما يضمه من المشاعر والعواطف والأفكار ، كل هذا من أجل إرضاء الملك ولفت الانتباه، فلا مبادئ ولا مراعاة للتشبيه، فقط نيل الجوائز.

وهنا يمدح الشاعر الملك فيقول [٧]:

علق الزمان الأخضر المهدى لنا ... من ماله العلق النفيس الأخطرا

ملك إذا ازدحم الملوك بمورد ... ونحاه لا يردون حتى يصدرا

نرى النسق في المدح قد أخذ منحى الانفراد للملك فقط ، فهو يركز على نسق الكرم والبطولة ، في أسلوب رخيص مكرر لدى أغلب الشعراء لكن بصياغة جيدة ذات محسنات مكشوفة ومتداولة ، لكن الأهم لدى الشاعر أن يعطي كل ما لديه للفت نظر الملك. ويستمر الشاعر في المديح فيقول [٨]:-

قداح زند المجد لا ينفك من ... نار الوغى إلا إلى نار القرى

يختار إذ يهب الخريدة كاعبا ... والطرف أجرد والحسام مجوهرا

هذه الأفكار السطحية التي أرهق بها الشاعر نفسه لغرض الرضى هي أفكار مكشوفة؛ لكن المضمر من غايته هي إعجاب الملك الذي نجح فعلا في نيل إعجابه وتقريبه له ، واستحصال المال منه ، فالملوك يحبون ويعجبون بمثل هذا القول الذي يشبههم بما ورد من تكلف وجهد، والتصنع والكلام المزوق ، فنسق الوصول للغايات واضح لدى الشاعر ابن عمار الذي كان متلهفا متوسلا مرتجيا في استخدام الألفاظ القوية ، وكان تأثير هذه القصيدة على الملك المعتضد كبيرا، فأعجب بالشاعر وقربه إليه وضمه إلى ديوان الشعراء، وفي موضع آخر نرى ابن عمار يتغنى بالانتصار الرائع الذي حققه الجيش الإشبيلي على البربر المقيمين في قرمونة قرب إشبيلية ، ويبدو واضحا في الأبيات تحمس ابن عمار لهذا الانتصار حيث يقول[٩]:

ورب ظلام سار فيه إلى العدى ... ولا نجم إلا ما تطلع من غمد

أطل على قرمونة متبلجا ... مع الصبح حتى قيل كانا على وعد

فأملـــــها بالســـــيف ثم أعارهـــــا ... مـن النـار أثـواب الحـداد علـى الفقـد

فيا حسن ذاك السيف في راحـة النـدى ... ويـا بـرد تلـك النـار في كبـد المجـد

هنا الشاعر ليس فقط يحسبه انتصارا يضاف للجيش الإشبيلي أو توسع نفوذهم في الأندلس ، هو يعرج على هذا لكن النسق الذي أضمره هو أكبر وأهم لديه، وهو تشفيه وابتهاجه بما حل بالبربر من ضيم وإذلال ، لأن عداء الشاعر للبربر متأصل في نفسه ، فنرى إحساسه في التعبير وصدق ودقة توصيف ما حدث لهم ، فيقول مشيرا إلى ابن اسحاق البرز وإلي حاكم قرمونه وباديس بن حبوس حاكم غرناطة ، وكانا من أشد أمراء البربر شكيمة وأقواهم سطوة:

يهـودا وكانـت بربـرا فـانتض الظـبي ... وانبـــئهم منـــها بألســـنة لـــد

أقـول وفـد نـادى ابـن اسـحاق قومـه ... لأرضـــك يرتـــاد المنيـــة مـــن بعـــد

لقـد سـلكت نهـج السـبيل إلى الـردى ... ظبـاء دنـت مـن غابـة الأسـد الـورد

كـــأني ببـــاديس وقـــد حـــط رحلـــه ... إلى الفرس الطاوي عـن الفـرس النهـد

وفي جانب شعري آخر يقول الشاعر في مدح الملك المعتضد بن عباد[١٠]:

مزحـت فـإني يـا ابنـة القيـل لم أكـن ... لأفشـــي ســـرا ضـــمنته قلـــوب

سأشـهد قـومي أن طرفـك مـن دمـي ... بـــريء وإذ كـــان الفتـــور يريـــب

وكيـف أرى في الغـدر نهجـا لسـالك ... وعهـــدي بالملـــك الـــوفي قريـــب

فـتى نسـخ الغـدر اقتضـاء وفائـه ... فـــلا تحكمـــن إن الوفـــاء غريـــب

تناول الشاعر موضوعا كان يقلقه مع خلجات نفسه فهو نسق مخفي أراد أن يعبر عنه من خلال طرحه في القصيدة، وهو موضع الوفاء لأنه كان يوجس خيفة من الملك القاسي وخوفه من بطشه وغدره، وإحساسه بتغير نفس الملك اتجاهه، وأن ما كان يوجسه ابن عمار هو حقيقه لان بعد ذلك نفاه الملك المعتضد وابعده عن ولده المعتمد ابن عباد. وبعد وفاة المعتضد أرسل المعتمد بإرجاع ابن عمار وأعطائه وزارتين وزارة الدولة ووزارة الشعر، لذلك لقب بذي الوزارتين، ففي إشبيلية تفتحت أمام ابن عمار آفاق جديدة، ترتبت عليها نتائج مهمة كان لها الأثر البالغ في مستقبله ، ففي بلاطه سابقا تعرف ابن عمار بالأمير محمد ابن الملك، ويبدو أن صفات مشتركة وميولات متشابهة جمعت بين الرجلين ومتنت صداقة

وثيقة أصبحت فيما بعد مضرب الأمثال ، فعندما أرسله الأمير محمد فاتحا لشلب ثم حاكما عليها ، كان ابن عمار ساعده الأيمن ورفيقه المقرب(١١).

القسم الثاني - نسق خطاب الشكوى والاستعطاف:-

وهنا في شلب أصبح الشاعر البائس الشريد شخصا آخر لا يكاد يمت إلى سابقه بصلة، فقد غيرت الحياة المترفة التي كان يحياها إلى جانب الأمير في قصر الشراجيب كل مظهر من مظاهر حياته القديمة البائسة ، فقد استجاب الرفيقان لدواعي المتعة والأنس واستسلما للملذات والمباهج، وانغمرا في التبذل والمجون بشكل بقيت ذكراه عالقة في نفسيهما بعد ذلك بزمن طويل ، فعندما أرسل المعتمد صديقه بعد ذلك بسنوات حاكما على (شلب) خاطبه بأبيات ذكر فيها هذه الحقبة السعيدة من حياته قال فيها (١٢):

ألا حي أوطان بشلب أبا بكر	وسلهن على عهد الوصال كما أدري
وسلم على قصر الشراجيب من فتى	له أبدا شوق إلى ذلك القصر
منازل آساد وبيض نواعم	فناهيك من غيل وناهيك من خدر
وكم ليلة قد بت أنعم جنحها	بمخصبة الأرداف مجدبة الخصر

استخدم الشاعر هنا نسقا تصوريا ممزوجا بالذكريات السعيدة التي نقلها بتفاصيلها مع الملك ابن عباد، حين كانوا معا قبل سنوات، فبدأ بمدينة شلب إلى جمالها وبناياتها وقصرها ونسائها الجميلات ، فقد استذكر الشاعر كل اللحظات الجميلة مع الملك ، واستعمال نسق الذكريات وإيصالها بصورة منمقة للملك ، وابن عمار نفسه لم ينس هذه الأيام الهائلة، فقد بقيت ذكراها عالقة في خاطره يستعيدها كلما حاقت به الكروب والمصائب ، وها هو ذا يذكرها في قصيدته التي بعث بها إلى الأمير محمد بعد ذلك بسنوات وهو في سرقسطة خائفا من غضب المعتضد وبطشه الذي أبعده إلى سرقسطة ، وطامحا بالحصول على عفوه ورضاه.

أشلب ولاتنساب عبرة مشفق	وحمص ولاتعتاد زفرة نادم

المقصود بـ(حمص) هنا (إشبيلية) وهنا الشاعر يستخدم نسق العاطفة لاستمالة مشاعر وعواطف الملك للعفو عنه؛ فهو دقيق في وصف التفاصيل التي عاشها مع الأمير محمد للوصول إلى غايته والصفح عنه، وهنا كعادة البشر التذكير بما هو حسن لاستمالة قلب

أحدهم ، فيبدو واضحا أن الصديقين الشابين لم يدعا سبيلا من سبل الأنس لم يسلكاه، ولم يتركا بابا من أبواب المتعة لم يطرقاه ، حتى أصبحا مضرب أمثال الناس وموضع حديث البعيد والقريب ، فنسق مراحل العلاقة يكون مؤثرا حسب قوة هذه العلاقة أو الصداقة، يقول ابن عمار في منفاه [١٣]:

علي وإلا ما بكاء الغمائم ... وفي وإلا ما نياح الحمائم

وعني أثار الرعد صرخة طالب ... لثأر وهز البرق صفحة صارم

وما لبست زهر النجوم حدادها ... لغيري ولا قامت له في مآتم

في هذه الأبيات شكوى وتذمر واضح ، من واقعه في منفاه في سرقسطة ، وتذكير الأمير محمد بأيام الحنين إلى المتعة في شلب وإشبيلية ، فنرى نسقا مخفيا فيه عواطف ملتهبة مع الصدق والإخلاص واضحة في القصيدة.

وبعدها ينتقل الشاعر لوصف حاله المزري في سرقسطة [١٤]:

هو العيش لا ما اشتكيه من السرى ... إلى كل ثغر أهل مثل طاسم

وصحبة قوم لم يهذب طباعهم ... لقاء أديب أو نوادر عالم

صعاليك هاموا بالفلا فتدرعوا ... جلود الأفاعي تحت بيض النعائم

يصف حاله بينهم بأنهم لا يفقهون شيئا من الثقافة والخلق ، ولا يثمنون الأدباء والعلماء، ويصفهم بالصعاليك ، وصعوبة العيش بينهم وجفاء الناس هناك وجهلهم بما يحيط به من دسائس ، هذا كله وغيره ليس بحقيقة مطلقة أو تكاد تكون ليس بالصورة التي نقلها، لكنها تخفي تحت طياتها استمالة عاطفة وقلب الأمير لإرجاعه إلى جانبه ، فنسق الشكوى هو ما أراد الشاعر العمل عليه ، والسعي لإرجاعه لجانب الأمير لتحقيق غاياته وطموحه السياسي

وفي مورد آخر يقول ابن عمار:

أبا قاسم اقبلها إليك فإنما ... ثناؤك مسكي والقوافي لطائمي

محملة عذرا فإنك جملة ... من الفضل لم استوفها بتراجم

فديتك ما حبل الرجاء على النوى ... بواه ولا ربع الوفاء بقاتم

أنـا العبـد في ثـوب الخضـوع لـواني أرى البـدر تـاجي والنجـوم خـواتمي
ومـاعز في الـدنيا طـلاب لماجـد ولا اعتـاص في الأيـام ورد لحـائم

الشاعر هنا يغوص خلف التشابيه النادرة والمجازات الغريبة والكلام المنمق ، فهو تعبير نسقي ويضمره في جوهره للوصول لغايته ولإثارة الملك ورضاه عنه ، فنلاحظ لهفته وشعوره العميق يدفعه للرجاء والتوسل والاستعطاف بل وحتى المبالغة في المديح ، لنيل رضى الأمير ووالده. فنستطيع القول إن نسقية الخطاب المدحي هي كانت موضوع الشاعر.

والشاعر ابن عمار بعث الكثير من القصائد للأمير محمد بن عباد في حينها ، فتارة في استعطاف وتوسل وتارة أخرى فيها غزل وحب وصبابة، والتركيز على العواطف العميقة والتحسس الفني، فنرى نسقية الخطاب الاستعطافي واضحة وجلية، كما يقول في هذه الأبيات[١٥]:

جـاه الهـوى فاستشـعروه عـاره ونعيمـه فاسـتعذبوه أواره
قـالو أضـر بـك الهـوى فأجبتـهم يـا حبـذاه وحبـذا أضـراره

وفي مورد آخر نرى الشاعر (ابن عمار) يعاتب (ابن زيدون) الشاعر المعروف الذي كان مستشار المعتضد الأول ويده اليمنى ، فيستخدم نسقية الخطاب العتابي فيقول[١٦]:

كيـف اعتـززت عـن الـدليل وقطعـت أسـباب الوصـول
أبـرزت في خلـق الكـريم ووراءه خلـق البخيـل
جـد بالقليـل فـإن نفسـي مـن تقنـع بالقليـل

وإلى آخر القصيدة كلها في العتب ونسق الخطاب العتابي والتذلل من أجل الشفاعة لدى الملك لإرجاعه إلى ما كان عليه من رفعة وقرب من البلاط الملكي. بعدها تغيرت حياة ابن عمار من حال إلى حال حين استلم زمام الحكم الأمير محمد بن عباد بعد وفاة والده المعتضد، وأصبح ملكا، وقرب بن عمار إلى سدة الحكم وتغير حال الشاعر الذي يعيش من إحسان الآخرين وعطفهم إلى رجل سياسي مقرب من الملك ، وترك الكسب عن طريق الشعر إلى حياة كلها رغد وأنس وملذات.

المبحث الثاني

تحدي السلطة ، والملك (محمد بن عباد) ومقتله

لقد أحدث مجيء المعتمد إلى العرش تحولا خطيرا في حياة ابن عمار ، لم يعد ذلك الشاعر البسيط ذا الأصل المغمور والمنزلة التافهة والمكانة المزدراة ، وإنما أصبح شخصا آخر يختلف كبير الاختلاف عن سابقه ، فقد استبدل بمهنته مهنة أخرى أسمى مركزا وأعلى مقاما، واتخذ لنفسه بدل طبقته الواطئة طبقة أخرى أرفع جاها وأبهى حياة ، لقد أصبح من خاصة الأشراف بكل ما يتطلبه الانتساب لهذه الطبقة من ترف وبذخ، وحياة ناعمة ومشاعر خاصة ، لقد أصبح رجل دولة وقابضا على زمام حكم ، مع جميع ما تقتضيه هذه الرتبة من غنى وقوة ونفوذ ، أما الشعر فلم يعد وسيلته الأصلية للعيش ، وإنما حلية وزينة تتطلبها مقتضيات الحياة الارستقراطية ومركزه الاجتماعي الجديد ، فصار ابن عمار من ألمع شخصيات عصره السياسية ، بل إنه نموذج فريد من نماذج الساسة في العصور الإسلامية المختلفة ، ولقد كان همه الأول في هذا الميدان هو احتكار صداقة الأمير ، إذا صح التعبير وتقوية نفوذه لديه [١٧] ، إلى أن شهد في نفسه القوة على العمل لحسابه الخاص والاستغناء عن سيده ، ولم تكن الجهود التي بذلها للوصول إلى هدفه هذا صعبة التحقيق ، إذ لم يكن أمامه عند رجوعه إلى إشبيلية سوى أبي الوليد بن زيدون وزير المعتضد ، وتدل المحاولات التي قام بها ابن عمار لإبعاد غريمه عن سدة النفوذ والقرب من الملك كثيرة وأهمها حين نجح ابن عمار بإقناع المعتمد بإرسال ابن زيدون من قرطبة إلى إشبيلية لإخماد ثورة قامت ضد اليهود هناك ، ولم تكن حال ابن زيدون الصحية تسمح له بتحمل السفر ومشقاته ومتابعه ، فما كادت أن تمر بضعة أيام على وصوله إلى إشبيلية حتى لفظ أنفاسه الأخيرة عام ٤٦٣هـ.

وهنا بقي ابن عمار صاحب النفوذ الأوحد تقريبا على المعتمد ، مبعدا عنه كل من يرغب في إبعاده ، لأن شخصية أخرى في حياة المعتمد لم تكن قليلة التأثير فيه حتى آخر أيام حياته ، ونقصد بها (اعتماد الرميكية)

زوجة المعتمد الحسناء ، التي كان قد التقي بها على شاطيء الوادي الكبير في مرج الفضة في ضواحي إشبيلية ، ففتن بها وبجمالها وشغف بها حبا ، فاشتراها من سيدها رميك بن الحجاج وتزوج بها ، لقد كان الشخص الوحيد الذي شارك المعتمد في سرائه وضرائه

حتى نهاية حياته، وإن ابن عمار كان مع المعتمد حين التقى (اعتماد) الجارية الحسناء، وإنها كانت العدو اللدود لابن عمار، بل إنها كانت السبب الرئيسي في مقتله، وسبب هذا العداء العنيف هو قصيدة نظمها ابن عمار في هجاء المعتمد وكان لاعتمار الرميكية في هذا الهجاء نصيب، ويمكن أن نقسم هذا المبحث من حيث الأنساق على قسمين، الأول هو نسق الخطاب الهجائي بسبب اعتداده بنفسه، ومن جانب آخر هجوه لزوجة الملك (اعتماد الرميكية)، والثاني هو نسق الخطاب العتابي بينه وبين الملك والثالث نسق الخطاب في رؤية واقعية.

القسم الأول - نسق الخطاب الهجائي:

وهو أول التحديات وأخطرها وفعلا هي كانت السبب الذي قاده الى حتفه، والذي قال في قصيدة نظمها وهو يهجو(اعتماد) [١٨]:

تخيرتها من بنات الهجان ... رميكية ماتساوي عقالا

فجاءت بكل قصير العذار ... لئيم النجارين عما وخالا

بصفر الوجوه كان استتها ... رماهم فجاءوا حيارى كسالا

هنا الشاعر ينعتها بعديمة الأصل وأنها لا تساوي أي شيء ذي قيمة ، وهنا نسقية الخطاب الهجائي واضحة ضد اعتماد التي كانت خصمه اللدود ، ولم تكن العداوة وليدة الساعة بل إن لديها أمد طويل من الكراهية والبغضاء فيما بينهما ، أي في أثناء مقام ابن عمار في إشبيلية وهو في قمة مجده وعنفوان نفوذه ، وإلا لما اختارها ليصب عليها جام غضبه ويوجه إليها أقذع شتائمه. فنسق المنافسة غير النقية والتي يشوبها الغيرة والحقد والكراهية هي من تولد الأسباب والنتائج السلبية وغير اللائقة والتي تصل في بعض الأحيان إلى سفك الدماء كما حدث مع ابن عمار في نهاية مطافه السياسي.

كان ابن عمار يدرك جيدا ما يدور في بلاد الأندلس من ولاءات وأحلاف سياسية بسبب قربه من هذه الطبقات واطلاعه مسبقا بسبب تجواله في المدن ، ولا يخفى أن الخطوط السياسية في بلاد الأندلس كانت تقسم على ثلاثة أقسام

أولاً:- سياسة إسلامية ، باعتبار أن مصلحة دويلاتهم مرتبطة بمصلحة الإسلام ، ولابد لهم أن يضعوا نصب أعينهم توسيع نفوذ الإسلام ومحاربة المسيحين.

ثانياً:- سياسة المسالمة وحفظ التوازن، وذلك بقبول الحال الموجودة والمحافظة بكل الوسائل على التوازن السياسي، والتشبث بفكرة التعايش السلمي

ثالثاً:- سياسة توسع وطموح ، تهدف إلى توسيع رقعة المملكة بكل الوسائل الممكنة ، سواء أكان ذلك عن طريق الحرب أو المؤامرات أو الشراء أو المعاهدات ، وهنا كانت سياسة بني العباد نشطة في هكذا مجال

وقد كان ابن عمار في هكذا سياسة بطلها لمعرفته التامة بحال الملوك الأندلسيين ، وهذه المعرفة اكتسبها من سفراته الطويلة وتجاربه الكثيرة والتي أملت عليه موقفه تجاه الملوك المسيحيين عموما، واتجاه (الفونس السادس) على وجه الخصوص ، فنسق السلطة وحب السلطة يجري في عروقه منذ أن اقترب من الملك المعتضد ، فكان يعرف ضعف ملوك الطوائف المسلمين ويدرك قوة ملك قشتالة النامية ، لذا وجه همه إلى توثيق الروابط وتقوية الصلة بهذا الأخير، لأسباب عدة منها قوته وذكاءه والجميع يدفع له الأتاوات ويستميحونه العفو والرضى ليتجنبوا هجماته ويحظوا بصداقته ، استمر ابن عمار بطموحه السياسي وبحكم منصبه الرفيع ومعرفته بأمور الدولة ، لم يقف عند هذا الحد بل تطور طموحه إلى أن تمرد على الملك محمد بن عباد بعد فشل حملته على مرسية.

حملة مرسية التي كان مهندسها الأول هو ابن عمار والذي صور للملك محمد بن عباد أن احتلالها هي لقمة سائغة ، وهكذا تقدم الجيش الإشبيلي يسانده عدد من الجنود البرشلونيين ، بسبب صفقة عقدها ابن عمار بين الكونت رايموند بيرانجيه الثاني وبين محمد بن عباد وكان ابن عمار هو عرابها ، ففشلت الحملة على مرسية ، واعتقل الكونت المسيحي الرشيد ابن الملك محمد ، ولم يطلق سراحه إلا بعد دفع فدية مالية ، فغضب الملك على سوء تخطيط ابن عمار غضبا شديدا فخاطبه ابن عمار قائلا[١٩]:

أأركب قصدي أم أعوج مع الركب	فقد صرت من أمري على مركب صعب
وأصبحت لا أدري أفي البعد راحتي	فأجعله حظي أم الخير في القرب
على أنني أدرى بأنك مؤثر	على كل حال ما يزحزح من كربي

فنرى نسق الصراع النفسي الذي يدور في خلجات نفس الشاعر، بسبب موقفه المحرج من جانب وبسبب خوفه من جانب آخر ، وانهيار طموحه السياسي أمامه. بعد أن أنفق في

سبيله ما أنفق في سبيله من جهة ، وغضب ملكه وفقدان ثقته من جهة أخرى، وفي عام ٤٦٧هـ، أرسله المعتمد سفيراً إلى بلاط ألفونسو السادس ملك قشتالة، لعقد حلف يدفع المعتمد بموجبه خمسين ألف دينار لألفونسو، على أن يعاونه ألفونسو في انتزاع غرناطة من يد صاحبها عبد الله بن بلقين، وتكون أموال غرناطة لألفونسو. بدأ التنفيذ ببناء حصن بالقرب من غرناطة شحنه ابن عمار بالجند ليكون قاعدة لتهديد غرناطة.

غير أن معارك المعتمد في قرطبة مع بني ذي النون اضطرته لإخلاء الحصن، فاحتله جنود غرناطة، أشار ابن عمار على المعتمد بعدئذ بضرورة الاستيلاء على مرسية، فعهد إليه المعتمد بوضع خطة لانتزاعها من يد صاحبها ابن طاهر، فعقد ابن عمار صفقة مع ريموند برانجيه الثاني كونت برشلونة، يشارك فيها ريموند بفرسانه في حملة ضم مرسية مقابل مبلغ من المال، وقدّم الطرفان الرهائن للوفاء بالصفقة، فقدم المعتمد ابنه الرشيد بن المعتمد، وقدم الكونت ابن أخيه. حاصرت القوتان مرسية، إلا أن المعتمد تلكأ في أداء المال إلى حليفه، فظن الكونت أنه قد غرر به، فقبض على ابن عمار والرشيد، وانسحب بقواته. فأدى المعتمد المال، وبعث معه ابن أخي الكونت، فأفرج الكونت عن الرشيد وابن عمار، وأخفقت تلك الحملة. وفي عام ٤٧١ هـ، أشار ابن عمار على المعتمد بتجهيز حملة أخرى بقيادة ابن عمار نفسه على مرسية، وألقى إليه بتجهيز الجيش وهو على رأسه يقوده ، وهنا نلاحظ نسق الخداع والخديعة للوصول إلى غاياته الموجلة في نفسه والتي لم يتوقعها أحد حتى المقربين منه ، وسار بعد أن أتم استعداداته الخطيرة وسار إلى قرطبة حيث ألحق بجيشه جزءا مهما من حاميتها وقضى ليلة بصحبة أميرها الفتح بن المعتمد حاكم المدينة، حتى إذا ما بدت خطوط الفجر قدم إليه أحد أتباعه ينبهه إلى أن وقت السفر قد حان، فيجيبه ابن عمار[٢٠]:

إليك عني فليلي كله صبح وكيف لا وسميري الحاجب الفتح

هنا نرى مدى تلهفه واندفاعه لتنفيذ خطته والاستيلاء على الحكم وخيانته الملك مبيته في نفسه ، ويترك الجيش الإشبيلي قرطبة متوجها إلى مرسية ، وفي طريقه مر ابن عمار بصاحب حصن بلج عبد الرحمن بن رشيق، وسلمه قيادة الحملة. حاصر ابن رشيق مرسية، ورجع ابن عمار إلى إشبيلية ينتظر الأخبار بسقوط مرسيه بيد ابن رشيق[٢١].

فقامت حركة تمرد داخل المدينة ساعدت بإسراع سقوطها بيد ابن رشيق، فسقطت

المدينة ووقع ابن طاهر أسيرا ولم يستطع حتى الفرار ، وما كانت الأنباء تصل إلى ابن عمار في إشبيلية حتى استأذن المعتمد بالرحيل وترك إشبيليه في موكب حافل تخفق فوقه الرايات وتضرب حوله الطبول ، تتبعه مئات المطايا والبغال المحملة بنفائس الهدايا وفاخر الثياب، ويجتاز هذا الموكب الرائع قرطبة في احتفال كبير يحف به الناس تملأ نشوة النصر ويشيع في نفسه الزهو والخيلاء ، ومنها يمضي إلى غيرها من المدن التي تقع في طريقه حتى يصل مرسية ، فوصل ابن عمار مرسية ودخلها بموكبه المهيب ، حتى إذا كان اليوم الثاني جلس في قصر الإمارة يستقبل المهنئين ويوزع الجوائز ، وقد ارتدى قلنسوة طويلة اعتاد المعتمد لبسها، وكان يكتفي بأن يكتب في ذيل ما يقدم إليه ((ينفذ ان شاء الله)) ، دون أن يذكر المعتمد سيده أو يشير إليه كما تقتضي الأصول الإدارية المتبعة آنذاك ، فهنا نرى ما كان يضمر ابن عمار في نفسه من خطط ومؤامرات وتمرد للانقلاب على سيده المعتمد.

وبعد أن أخذ الخلاف مأخذه بين المعتمد وابن عمار فقد نظم ابن عمار أبيات كلها شتم وسباب للمعتمد وذويه قال فيها[٢٢]:

ألا حي بالغرب حيا حلالا ... أناخوا جمالا وحازوا جمالا

ويقول في أجداد بني العباد أنهم ليسوا سوى رعاة إبل في بطون الصحراء وقد جاءوا من العدم:

وعرج يومين أم القرى ... ونم فعسى أن تراها خيالا

لتسأل عن ساكنيها الرماد ... ولم تر للنار فيها اشتعالا

ويذهب إلى أبعد من ذلك فيتناول اعتماد الرميكية زوج المعتمد ويصفها وأولادها بأقبح الصفات:

أيا فارس الخيل يا زيدها ... حميت الحمى وأبحت العيالا

أراك تورى بحب النسا ... وقد ما عهدتك تهوى الرجالا

تخيرتها من بنات الهجان ... رميكية ماتساوي عقالا

فجاءت بكل قصير العذار ... لئيم النجارين عما وخالا

بصفر الوجوه كان استتها ... رماهم فجاءوا حيارى كسالا

فتسربت هذه القصيدة إلى الملك المعتمد وغضب عليه أشد الغضب وحقد عليه حقدا ذميما، وكانت من ضمن أسباب مقتله هذه الأبيات.

ثانياً - نسق الخطاب العتابي:

كان من ضمن العوامل التي ساعدت ابن عمار على الانقلاب هي:

أولاً:- الفترة المضطربة في بلاد الأندلس وعدم وجود حكم مركزي يحكم البلاد بشكل تام وحازم.

ثانياً:- اعتداد ابن عمار بنفسه وغروره وإيمانه بحنكته السياسية ودهائه في إدارة دفة الحكم ، فكان يعتقد أن إدارة دولة بني العباد وتوسيع نفوذها يرجع الفضل فيها إليه، فنراه يقول [٢٣]:

ولي حسنات لو أمت ببعضها إلى الدهر لم يرتع بنائبه سربي

ثالثاً:- صداقة ابن عمار لألفونس السادس ملك قشتالة وثقته بتأييده وإسناده ، لأن ابن عمار كان يدرك مدى أهمية الفونس السادس وتأثيره الكبير على توازن القوى.

رابعاً:- غنى مرسية وثروة ابن طاهر ، فقد كان واسع الثراء

خامساً:- عدم وجود أساس شرعي للسلطة غير المال والقوة في الأندلس آنذاك ، فمن امتلك المال استطاع تجنيد المرتزقة وجمع الأتباع وضم الأعوان.

كل هذه الأسباب أدت بالوزير أن يبيت النوايا ويضمرها بعد أن درسها للانشقاق عن الملك المعتمد والاستقلال عنه ، فبدأت فجوة الخلاف بعد استقلاله ونكرانه الجميل حين بعث بأبيات إلى المعتمد بن عباد يقول فيها[٢٤]:

أظن الذي بيني وبينك أذهبت حلاوته عني الرجال الخبائث

تنكرت لا أني لفضلك ناكر لودي ولا أني لعهدك ناكث

هنا الشاعر يناقض نفسه فيدعي الوفاء وهو قد أعلن الاستقلال عن حكم الملك ونسق التناقض وعكس المتبنيات والأصوليات حاضر لديه بشكل واضح وجلي، وحين عاتب

الملك ابن عمار على فعلته في بيتين [٢٥]:

تغـــير لي فـــيمن تغـــير حـــارث ... وكـــل خليـــل غيرتـــه الحـــوادث

أحـــارث إن شـــوركت فيـــك فطالمـــا ... نعمنـــا ومـــا بـــيني وبينـــك ثالـــث

أجابه ابن عمار قائلا[٢٦]:

لـــك المثـــل الأعلـــى ومـــا أنـــا حـــارث ... ولا أنـــا ممـــن غيرتـــه الحـــوادث

ولا شـــاركت الشـــمس في أوانـــه ... لينـــأى بحظـــي منـــك ثـــان وثالـــث

فـــديتك مـــا للبشـــر لم يســـر برقـــة ... ولا نفحـــت تلـــك الســـجايا الـــدمائث

وفي مورد آخر يعاتبه ابن عمار فيقول مذكرا إياه بخدماته الجليلة لإشبيلية [٢٧]:

أبعـدما مضـت خمـس وعشـرون حجـة ... تجافـت بنـا تلـك الخطـوب الكـوارث

مضـت لم تـرب مـني أمـور شـوائب ... ولا تليـت عـني مسـاع خبائـث

حللـت يـدا بي هكـذا وتـركتني ... نهابـا وللأيـام أيـد عوابـث

هنا نرى نسق العتاب واضحا لدى ابن عمار لإرجاع العلاقة بينه وبين الأمير أو لكسب وده في تجميع ما يمكن تجميعه من شتات الود الذي تبعثر بسبب خيانة وتمرد ابن عمار.

وقعت تلك القصائد وأهمها هجوه لزوجة الملك ولبني العباد في يد أبي بكر بن عبد العزيز صاحب بلنسية الذي لم يكن على وفاق مع ابن عمار عن طريق بعض عملائه في مرسية، فأرسلها إلى المعتمد ليؤلبه على ابن عمار. تزامن ذلك مع تمكّن ابن رشيق من خلع أبي بكر بن عمار من حكم مرسية، منتهزاً خروجه يوماً لتفقد بعض الحصون. فر ابن عمار إلى بلاط ألفونسو السادس، الذي لم يقدم له يد العون، فقصد سرقسطة عند حاكمها المقتدر بن هود، فأكرمه واستخدمه. ثم توفي المقتدر عام ٤٧٥ هـ.

وتقاسم أولاده مملكته، فكانت سرقسطة من نصيب ولده المؤتمن، فظل ابن عمار عنده. ثم أوعز ابن عمار للمؤتمن بفتح حصن شقورة الذي يقع في أراضي دانية، فبعث المؤتمن ابن عمار في ربيع الأول ٤٧٧ هـ بقوة لفتح الحصن، إلا أن حاكمه ابن مبارك دعا ابن عمار ورجاله لدخول الحصن وأظهر الترحاب لهم، فانخدع ابن عمار، وما كاد أن دخل الحصن، حتى قبض عليه، وأودع السجن. وحين علم المعتمد بالحدث، أرسل ابنه الراضي بالأموال

إلى ابن مبارك ليسلمه ابن عمار، فسلم ابن مبارك أسيره للراضي الذي ذهب به إلى قرطبة حيث كان المعتمد يومئذ، ثم أخذه بعد أيام إلى إشبيلية وسجنه. تضرع ابن عمار للمعتمد بأشعاره ليسامحه، إلا أن المعتمد لم يقبل منه اعتذاره، ثم قتله المعتمد بيده في أواخر عام ٤٧٧هـ(٢٨).

الخاتمة:

توصلت الدراسة إلى نتائج عن النسق المضمر في شعر ابن عمار ومنها:

١- يعد المضمر النسقي غنيا وذا وفرة في شعر ابن عمار لما تناوله من موضوعات عدة؛ بسبب مغامراته وتنقلاته الجغرافية والسياسية.

٢- تمثل تداخلات حياة ابن عمار وجرأته في تحدي السلطة التي ترعرع في كنفها موضوعا نسقيا ذا أبعاد سياسية.

٣- تعد نسقية الخطاب الهجائي بين الشاعر والملك المعتمد ثيمة شعرية تحمل في طياتها نسقا مضمرا واسع الخطاب.

٤- التسلق والوصول للسلطة يدخل الشاعر بكثير من المطبات التي نتج عنها عدة مواضيع نسقية كالخطاب السياسي المضمر في جانب المدح والتذلل.

٥- تضمن البحث مواضيع مهمة كالهجاء المباشر لعائلة الملك ولأجداده وليس للملك نفسه فحسب، وسبب هذه الخصومة وتداعياتها كلف الشاعر حياته.

٦- تسليط الضوء بشكل مباشر على شخصية الشاعر المتقلبة بين المدح والتحدي والتذلل والهجاء.

هوامش البحث

(١) - محاضرة في مفهوم الأنساق، طه الهاشمي: ٨٥
(٢) - النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية، عبدالله الغذامي: ٨٢
(٣) - الأمثال العربية القديمة دراسة أسلوبية سردية حضارية، د. أماني سليمان: ٧٤
(٤) - المعجب في تلخيص أخبار المغرب: ١١٤
(٥) - المصدر نفسه: ١١٧
(٦) - محمد بن عمار الأندلسي، دراسة أدبية تأريخية: ٣٥
(٧) - المصدر نفسه: ٣٥
(٨) - المصدر نفسه: ٣٦
(٩) - المصدر نفسه: ٤١
(١٠) - المصدر نفسه: ٤١
(١١) - قلائد العقيان، الفتح بن خاقان: ١١
(١٢) - محمد بن عمار الأندلسي دراسة أدبية تأريخية: ٤٨
(١٣) - المصدر نفسه: ٤٨
(١٤) - المصدر نفسه: ٥٠
(١٥) - المصدر نفسه: ٦٣
(١٦) - المصدر نفسه: ٦٦
(١٧) - ديوان المعتمد: ١١
(١٨) - المصدر نفسه: ٧٣
(١٩) - المصدر نفسه:١١٤
(٢٠) - المصدر نفسه: ١٢٠
(٢١) - الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ١٣٧
(٢٢) - محمد بن عمار الأندلسي: ١٣٧
(٢٣) - ديوان ابن عمار: ٢٠٧
(٢٤) - المصدر نفسه: ٢٨٤
(٢٥) - المصدر نفسه: ٢٨٥
(٢٦) - المصدر نفسه: ٢٨٦
(٢٧) - المصدر نفسه: ٢٨٧
(٢٨) - ابن الأبار محمد بن عبدالله بن أبي بكر القضاعي البلنسي: ١٥٨.

قائمة المصادر والمراجع

١. الأمثال العربية القديمة، دراسة أسلوبية سردية حضارية: د. أماني سليمان، المؤسسة العربية للدراسات، لبنان ٢٠٠٩ م.
٢. ديوان ابن عمار: نسخة الكترونية: /archive.org/details
٣. ديوان المعتمد بن عباد: تحقيق: حامد عبد المجيد، دار الكتب المصرية، ط٣، ٢٠٠٢ م.
٤. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، أبو الوليد بن المصيصي، ط ١، ١٩٧٨ م.
٥. قلائد العقبان ومحاسن الأعيان: الفتح بن خاقان بن أحمد بن قرطوج، تحقيق: د. حسين يوسف خربوش، مطبعة المنار، ط١، الزرقاء الأردن ١٩٨٩ م.
٦. محاضرة في مفهوم الأنساق، طه الهاشمي
٧. محمد بن عمار الأندلسي، دراسة أدبية تأريخية: د. صلاح خالص، مطبعة الهدى، ط١، بغداد ١٩٧٥م.
٨. المعجب في تلخيص أخبار المغرب: عبدالواحد المراكشي، تحقيق: د. صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، صيدا، ط ١، ٢٠٠٦ م.
٩. النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية: عبدالله الغذامي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط ٣، ٢٠٠٥ م.